قراءة في رواية: دم لفطير صهيون لل

لقد أحسست بالاشمئزاز عندما قرأت رواية الدكتور نجيب الكيلاني - رحمه الله -«دم لفطير صهيون» وانزعجت كثيراً. لم أتصور أن هناك بشراً يشربون دماء الآدميين. وقلت قد تكون رواية من خيال الكاتب، لكن الدكتور نجيب - رحمه الله - كان ذكياً. وسد هذا الخاطر الذي يتوارد إلى ذهن القارئ، فقدم الوثائق التاريخية التي تثبت واقعية الرواية، وأن أحداثها حقيقية، وليست من ابتداع الخيال. فالرواية وثيقة تاريخية هامة تكشف عن طبع اليهود الدموي. ولذا حرص الكاتب على وصف الأماكن وصفاً دقيقاً لما عليها من مبان، وما فيها من الناس، وهو وصف ينبض بمشاعر المكان والإنسان الممتزجة ببعضها.

بقلم: إبراهيم سعفان
مصر

فحارة اليهود غامضة، ملتوية كالأفعى فيقول: «وليس في دمشق كلها من لا يعرف الحارة الشهيرة المميزة.. حارة اليهود. فإذا سرت في هذه الحارة، وقعت عيناك على رجال اليهود ونسائهم وأطفالهم. وعلى بيوتهم المتلاصقة المزدوجة الأبواب التي تبدو صغيرة قليلة الارتفاع. لا يكاد المرء يدخلها إلا منحنياً، ولا تتسع لأكثر من واحد، وكأنها أبواب الدهاليز الغامضة، والباب يقودك إلى ممر ملتو كالأفعى» (ص ٧).

ويواصل الكاتب وصف كل ما في الحارة: محلات، وكنيسة، ومحل الحلاقة الذي يملكه سليمان.

وبعد أن يقدم الكاتب منظراً عاماً للحارة، تنتقل عدسته إلى منزل داود هراري ذي الثراء الفاحش فيصفه «فهو بناء جديد يوحي بالعظمة والفن والنفوذ، نوافذه الزجاجية ذات الستائر الحريرية تجذب إليه الأنظار، وطلاؤه الناصع يوحي بالإعجاب والمتعة، حتى النسوة اللاتي تظهر وجوههن من النوافذ أو فرجات الأبواب يتمتعن بجمال فائق. وأصواتهن الرخوة الناعمة تثير خيال المراهقين. وتحرك الدماء بعنف في عروق الرجال» (ص ٨).

فالكاتب يدخلنا في مكان الأحداث مباشرة بوصف الحارة ومشتملاتها، رابطاً بين الأماكن وساكنيها وكيف ينطبع عليها سلوك وطباع أهلها.

ثم يعرف بشخصيات الرواية الرئيسية مبيناً أبعادها النفسية والاجتماعية، والفكرية كاشفاً خلال ذلك طباع اليهود وسلوكهم الشاذ، فيعرف بسليمان الحلاق المشهور في الحارة، وداود هراري وزوجته جميلة، والحاخامين موسى أبو العافية سلانيكي، والأب توما.

فسليمان الحلاق يحب المال والدماء ويتحقق له ذلك بما يقوم به من عمليات الفصد «إن سليمان يحب المال ويحب منظر الدماء أيضاً، والفصد يحقق له الهدفين معاً».

أما داود هراري فهو في الخمسين من عمره يعمل بالتجارة. حقق ثروة كبيرة، ذو حساسية تجارية لا تخيب، ذو مكانة عالية، ينظم حياته تنظيماً دقيقاً آلياً. وزوجته جميلة في الثلاثين من عمرها رائعة الجمال، تضيق من نظام زوجها الدقيق الصارم وتشمئز منه، على علاقة سرية آثمة بخادمها مراد الفتال لعجز زوجها الجنسي، ولهذا لم ينجبا أطفالاً، متمردة، ولكنها كانت تكتم هذه المشاعر «كان ظاهرها في الواقع يتسم

رحيل الدكتور نجيب الكيلاني

بالطاعة والرضى والحب لزوجها، وكانت أعماقها تكتظ بكراهية زائدة له ولأسلوبه في الحياة» (ص ٢٠).

أما الأب توما فقد أفرد الكاتب له عدة صفحات بين فيها أبعاده النفسية والاجتماعية والفكرية بصورة توحي بأهمية هذه الشخصية، ويركز على دوره بصفته رجل دين مسيحي يقوم بواجبه الديني والدنيوي في خدمة أهل الحارة حتى اليهود، يعيش مع خادمه الوحيد.

ويبدأ الكاتب بعد ذلك في الكشف عن جريمة اليهود السرية التي يقومون بها تنفيذاً للتعاليم التلمودية عندما يخبر داود هراري زوجته بأن علاجه من العقم في تناول الفطير المقدس المعجون بدم المسيحي كما أخبره الحاخام موسى أبو العافية. ويطمئنها بأن تنفذ تعاليم ديننا «ودم المسيحي الممزوج بالدقيق له فعل السحر يا امرأة».

وحتى لا يظن القارئ أن هذه قصة من الخيال يقدم الكاتب الوثائق التي تؤكد واقعية هذه الجريمة البشعة فتعثر جميلة زوجة داود هراري وهي تنتظر فتاها مراد الفتال لممارسة الخيانة تعثر على كتاب «الطور يورد» ألفه العالم الرباني يعقوب. أحد أئمة اليهود. وآراؤه يؤخذ بها في المسائل الدينية.

فاليهودي محرم عليه أن ينجي أحداً، وقرأت أيضاً «لا تعتبر اليمين التي يقسم بها اليهودي في معاملاته مع باقي الشعوب، يميناً لأنه كأنما أقسم لحيوان،

د . نجيب الكيلاني

والقسم لحيوان لا يعد يميناً، فإذا اضطر يهودي أن يحلف لمسيحي فله أن يعتبر ذلك الحلف كلاشيء، إن أموال المسيحي ودمه ملك اليهودي، وله التصرف المطلق فيها، وله الحق طبقاً لقواعد التلمود في استرجاع تلك الأموال».

ويشعر أصدقاء الأب توما بغيابه غير المعقول وكذلك خادمه، وتقصوا الأمر فعرفوا أنه ذهب إلى حارة اليهود للصق بعض الإعلانات، واستشعر أصدقاؤه شراً لغيابه، فسألوا وعرفوا أنه كان مع صديقه داود هراري الذي اصطحبه إلى منزله. واتهم الدكتور مساري اليهود بقتل الأب توما وخادمه، وتدخل قنصل فرنسا ورفع الأمر إلى القنصلية، وبسرعة أمر شريف باشا بتكوين لجنة لإجراء التحقيق.

ويقبض على سليمان الحلاق وتحت الوعد بالمال والعفو والوعيد اعترف سليمان على أصدقائه بالتفصيل، فكانت صورة لأبشع جريمة يرتكبها إنسان في حق إنسان «قالوا قم واذبح هذا القسيس.. أحضر داود سكيناً.. أنا الذي ألقيت القسيس على الأرض.. واشتركنا جميعاً في مسكه.. أنا الذي وضعت رقبة القسيس على طشت كبير.. وأمسك داود بالسكين وذبحه وأكمل معه أخوه هارون.. لم تقع نقطة واحدة من دم القسيس خارج الطشت.. سكنت حركات الضحية .. ثم سحبناه من حجرة الذبح.. إلى حجرة أخرى فيها بعض الأخشاب، ثم نزعنا ثياب القتيل.. وأحرقوها.. عندئذ حضر الخادم مراد الفتال، وبأمر منهم قمت أنا والخادم بتقطيع القسيس إرباً إرباً .. كنا نضع قطعة في الكيس.. ثم نرميها في المصرف عند أول حارة اليهود. بجوار منزل الحاخام موسى أبو العافية، ثم رجعنا إلى بيت داود.. وانتهت المأمورية» (ص ٨٣).

= ثم سأل الباشا سليمان:

- ماذا فعلتم بعظامه؟

- كسرناها بيد الهاون..

ورأسه..؟!

- كسرناها بيد الهاون أيضاً..

- وكيف فعلتم بأحشائه؟

- قال: قطعناها وأخذناها في الكيس.

ثم سأل المحقق!

- من اشترك في التقطيع؟

- كنت أنا والخادم نقطعه، والرجال

السبعة كانوا يرشدوننا إلى الطريقة.. كان معنا سكين واحدة أتبادلها أنا والخادم.. وهي تشبه سكاكين الجزارين.

- على أي بلاطة كسرتم العظام بعد تقطيع الأب توما؟

- على بلاطة موجودة بين المربعين.

- لما كسرتم رأس توما بالطبع كان المخ يخرج منه، فماذا فعلتم به يا سليمان؟

- نقلنا المخ مع العظام.

- متى تمت الجريمة؟

- وقت العشاء.

- كم استغرق تصفية الدم؟

رد سليمان

- حوالي ثلث الساعة أو نصفها، وهي المدة التي بقي فيها القس موضوعاً على الطشت.

تنهد الباشا في ألم وقال:

- ألم يحدث شيء آخر يا سليمان؟

- كان الرجال السبعة يضحكون ويمرحون ويغنون، بعضهم كان يرقص طرباً.. هذه طقوس ضرورية كما في الديانة».

- ما منفعة الدم عند اليهود؟

- يستعملونه في الفطير.

- كيف علمت ذلك؟

- سمعتهم يقولون..

وكذلك اعترف الحاخام موسى أبو العافية بما حدث بالتفصيل. واعترف باقي المشتركين في الجريمة.

❖ لقد آثرت أن أذكر بالتفصيل كل ما ذكر في التحقيق لأبين بشاعة اليهود، وكرههم للبشر مسيحيين ومسلمين، وإنهم يستحلون دم المسيحي والمسلم انتقاماً منهما، ويراجع الحاخام موسى أبو العافية نفسه وهو وحيد في زنزانته فيحدث نفسه بما يفعله ويعترف بأنه عاش في سجن كبير. وهو سجن

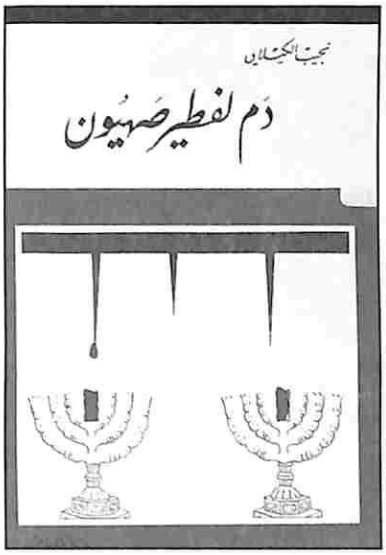

«خرافات التلمود التي دبجها الحاقدون. وعشت في متاهتها سنين طويلة، دون أن أسمح لنفسي بمعارضتها، أو مجرد مناقشتها».

ويدور حوار بينه وبين أحد الشيوخ حول الإسلام، يسأله الحاخام أبو العافية كيف الخروج من سجنه هذا؟ فيخبره بأنه ليس بينه وبين الحرية سوى كلمة واحدة هي: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وفتح الله قلب الحاخام موسى أبو العافية وسمى نفسه «محمد أفندي أبو العافية».

❖ في السجن مَرِض مَنْ مرض، ومات من مات من المحتجزين، وصدر قرار العفو عن سليمان الحلاق، والحاخام موسى أبو العافية أي محمد أبو العافية الذي ترك أهله وعاش وحيداً.

ويكشف الكاتب بعد ذلك عن دور اليهود السياسي الذي يقومون به للسيطرة على الدول. فقد استطاع كبار اليهود أن ينفذوا إلى محمد علي باشا بالأموال فيصدر قراراً بالعفو عن المسجونين الباقين وينتصر اليهود، نتيجة ضعف الحاكم محمد علي أمام بريق المال، وهذا هو أسلوب اليهود الذي تتبعه الآن فهي تحتمي بالقوى الكبرى وتغتصب فلسطين وتعربد في البلاد العربية، وتسيطر على الدول بالمؤامرات والرشاوي في سبيل تحقيق مآربهم. إنهم سكارى بدماء البشر، وما ارتكبوه يفوق العقل، ولذلك أحسن الدكتور نجيب - رحمه الله - عندما قدم صورة من التحقيق الرسمي الذي أجري مع المجرمين لأنه وثيقة تاريخية هامة.

إن إسرائيل تريد أن تسفك دمنا لتصنع منه فطيرة صهيون، لقد جمع الدكتور نجيب - رحمه الله - في هذه الرواية كعادته في رواياته التاريخية بين الفن والتاريخ مثل شخصية جميلة، ليبعث الحياة في بعض الوثائق التاريخية حتى لا يمل القارئ، ويستثيره لمتابعة أحداث الرواية، وقد نسج الكاتب أحداث روايته بحساسية الفنان المرهف نسجاً جيداً لا تناقض فيه كما ذكرنا، فقد كانت كل شخصية رمزاً لطباع اليهود.

كان الدكتور نجيب مدركاً لأهمية هذا فنياً، وقد أشار إلى ذلك في آخر الرواية، وبين ضرورة الجمع بين الفن والتاريخ في الإبداع الأدبي، وإلا كان العمل بحثاً تاريخياً أو نفسياً، أو اجتماعياً بعيداً عن الفن. ■